# الفكر التربوي ببلاد المغرب
# من محمد ابن سحنون وأبي الحسن القابسي إلى ابن خلدون

دة. هادية صيود*

**المقدمة:** ارتبط العلم والتدريس منذ القدم بالحياة الدينية، ولم تكن المساجد محل عبادة فقط بل كانت مكانا مخصصا لتربية الناشئة، وكان يطلق عليها آنذاك "بالكُتّاب" إذ تلقن فيها القراءة والكتابة والعلوم الدينية واللغوية وغيرها في شكل حلقات على يد فقهاء يعرفون باسم "أهل العلم".

وقد تعزز دور التدريس أكثر في العهد الأموي، حيث أصبح إنتاج المعرفة من الأمور الأساسية الموكولة للدولة حتى أنه تمّ القيام ببعثة علمية إلى القيروان ضمت عشر فقهاء كان قد أرسلها الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز والتي أسهمت بدورها في نشر التعليم والكتاتيب إلى بقية المدن الافريقية، الوضع الذي ساعد على تكوين أرضية ملائمة لظهور مؤلفات خاصة تعنى بالتعليم والمناهج التربوية في فترة القرن الثالث والرابع هجري، من أبرزها كتاب آداب المعلمين لمحمد بن سحنون[1] (ت256هـ) وأبي الحسن القابسي[2] (ت403هـ) في رسالته المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين.

وسنتسخلص أهم المبادئ التربوية والأفكار التعليمية التي ظفر بها كل من الفقيهين، والتي كان لها الدور الفعال في تربية الطفل في تلك الفترة.

كما أن اختيار هذين المؤلفين لم يكن أمرا اعتباطيا وإنما كان مقصودا نظرا للتشابه التام في المحتوى وهو ما يوضح استفادة القابسي من كتاب ابن سحنون رغم الفارق الزمني الذي يفصل بينهما، والذي يناهز القرن والنصف تقريبا نتيجة الأحداث التي حصلت في تلك الفترة والتي شهدتها افريقية بدءا من سقوط الدولة الأغلبية وتأسيس الدولة الفاطمية وعلى ما صاحب ذلك من تحولات سياسية إلى تحولات مذهبية مالكية وتشيعية.

لكل هذا لم يسهم في تطوير أو تعديل المنهج التربوي، ماعدا ما نلمسه من توسع وتفصيل منظم بمؤلف القابسي.

* **دكتورة في التاريخ الثقافي- باحثة بمختبر النخب والمعارف والمؤسسات الثقافية بالمتوسط- جامعة منوبة- تونس.**

**I- المبادئ الأساسية لعلم التربية عند ابن سحنون والقابسي:** أول ما تحدثنا عنه في كتابيهما هو منزلة العلم والتعليم في الاسلام، وقد أكدا على أهمية العلم وقيمته الضرورية استنادا إلى جملة من الأحاديث النبوية أهمهما قول الرسول "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"[3] كمبدأ أساسي في دعوة الإسلام الى التعليم حتى أن القابسي أضاف إلى تعلم القرآن المهارة في الترتيل مستعينا بقول الرسول: "مثل الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة والماهر بالقرآن يؤمر بترتيله... إن الترتيل في القرآن يحي الفهم للعالم فيستعين على التدبير الذي به أنزل القرآن" [4].

لقد ارتبط التعليم بالقرآن ارتباطا وثيقا لذلك جعله يحضى بمنزلة خاصة تسمو به المعرفة إلى حد التقديس، الأمر الذي استوجب تعميمه بين أبناء المسلمين دون تميز فئة أو طبقة عن أخرى، وهي سمة تؤكد مبدأ العدل والمساواة في التعليم ورفض التمييز، يقول القابسي: ومن حقهم عليه أن يعدل بينهم ولا يفضل بعضهم على بعض وإن تفاضلوا بالجعل، وإن كان بعضهم يكرمه بالهدايا والأرفاق إلا أن يفضل من أحب تفضيله في ساعة راحاته تعد تفرغه في العدل بينهم[5].

أما ابن سحنون فقد جعل بابا خاصا في كتابه يحمل عنوان "ما جاء في العدل بين الصبيان" قدم فيه أحاديث الرسول حول هذا الاطار من بينها "وليجعلهم بالسواء في التعليم الشريف والوضيع وإلا كان خائنا"[6].

كما ربط ابن سحنون مبدأ العدل بمعاني الرحمة والرأفة والترفع عن الاعتبارات الشخصية، إذ يتطلب التعليم من المعلم القيام بواجبه المهني، دون غيره وعدم الالتفات إلى الأمور الشخصية العارضة، أي أن ابن سحنون والقابسي رفضا الغضب والانفعال أثناء الممارسة التعليمية مقابل الاهتمام بالغاية التكوينية التي تخص مصلحة المتعلم، دون سواها لأن هذه الأمور العارضة من شأنها أن تعطل سير الدروس وأهداف التعليم عامة، يقول القابسي في هذا الصدد: إنما هي أعراض المسلمين وأبشارهم فلا يتهاون بنيلها غير الحق الواجب[7].

**1- البرنامج التعليمي:** ارتكز التعليم لدى الفقيهان على القرآن الذي مثل المادة الأساسية التي يقوم عليها الدرس والتي تنشأ من خلاله الدورة التكوينية التعليمية للصبي والتي تمد مرحلة الصبا دون تحديد المرحلة الزمنية، كما أن الصبي غير ملزم بقضاء المدة الكاملة في حفظ الكتاب إذ لم يكن هناك نظام يضبط من خلاله حضور المتعلم وانتقاله من مرحلة الى أخرى أو من قسم إلى آخر وإنما معيار التدرج في التعلم هو مدى اتقان القرآن قراءة وحفظا على أن يتواصل سير الدروس إلى حين انقطاعه بسبب العطل وهي يوم الجمعة وعشية الخميس وعطلة عيد الفطر وعيد الاضحى[8].

إضافة إلى القرآن الذي يعتبر المادة الأساسية للتدريس تنضاف إليه مادة الكتابة والقراءة التي ينبغي على المؤدب تعليمها للنشئة المطالبون بالحذق فيها دون سواها وعلى ضوء ذلك يتلقى المعلم أجره.

يقول القابسي حول وجوب حفظ المتعلم القرآن وحذقه الكتابة: "فأما أن يحظى في السورة الحرف والأحرف اليسيرة وهو مستمر في القراءة إلا أنه يخطئ ويعثر، قيلتن فهو عندي حفظ يجب للمعلم به أن يكافأ" (9).

ويشترط ابن سحنون إضافة إلى تعلم القرآن، كتابته وقراءته بقراءة نافع أساسا إذ يقول: "وينبغي له أن يعلمهم إعراب القرآن وذلك لازم له؟ والشكل والهجاء والخط الحسن والقراءة الحسنة والتوقيت والترتيل يلزمه ذلك... ويلزمه أن يعلمهم ما علم من القراءة الحسنة وهو مقرأ نافع" (10).

أما فيما يتصل ببقية المواد فقد تم الترغيب في بعضها دون الزام كالحساب والعربية والنحو وكلام العرب وأخبارهم والشعر مع الاحتراز في بعض المعاني كالفحش فيقول ابن سحنون في هذا الصدد: "وينبغي أن يعلمهم الحساب وليس ذلك بلازم له إلا أن يشترط ذلك عليه وكذلك الشعر والتعريب والعربية والخط وجميع النحو... ولا بأس أن يعلمهم الشعر مما لا يكون فيه فحش من كلام العرب وأخبارهم وليس بذلك بواجب عليه "(11).

أما تعليم الفقه والفرائض فهو الزامي على المدرس على حد تعبير ابن سحنون في كتابه: " قال مالك لا أرى أن يجوز إجارة من يعلم الفقه والفرائض"(12) ولا يعني استثناء الفقه والفرائض من التدريس، اعفاء المدرس من تعليم الصبيان المبادئ الفقهية كالصلاة والصيام، فقد حدد ابن سحنون الأمور التي يتوجب تعليمها من قبل المؤدب وهي "... وينبغي له تعليمهم سنن الصلاة مثل ركعتي الفجر والوتر وصلاة العيدين والاستسقاء والخسوف وحتى تعليمهم دينهم الذي تعبدهم الله به وسنة نبيهم"(13).

إن ما يقدمه الامام ابن سحنون من تعليم المواد الفقهية لا يتصل بعلم الفقه والمسائل النظرية وإنما يقف عند الحدود الدنيا الضرورية للتعبد وممارسة الشعائر اليومية اللازمة.

**2- طريقة التدريس:** ونعني بها رؤية الفقهيين للطريقة أو المنهج الذي على المعلم أتباعه أثناء قيامه بمهمته فيما يتصل بالتعامل مع المعلمين وما يصدررعنهم من سلوكات مختلفة أثناء الدرس أو خارجه وعن النمط الذي يقترحانه عند التقويم من جهة أو الحث من جهة ثانية.

وأول ما أكدا عليه هو اعتماد مبدأ الرفق أثناء الدرس على حد قول القابسي: " فقولك هل يستحب للمعلم التشديد على الصبيان أو ترى أن يرفق بهم ولا يكون عبوسا" [14]. فوجوب الرفق في العملية التربوية هنا تدل على مدى وعي القابسي وابن سحنون لما يلازم التعليم مني إدراك للحالات النفسية والأوضاع السلوكية للطفل أثناء تقديمه للدرس، أما حضور الشكل التأديبي فإنما هو إجراء لاحق ترك بعد التنبيه والتحذير مما يجعلانه حلا إجباريا ثانونيا، حتى أن الفقيهان وضعا له شروطا محددة تتصل بالـــمقدار والكيفية والأداة مقابل ذلك منعا استعمال ألفاظ الشتم والاهانة وربطا ذلك بالغضب وهي الحالة التي يتوجب على المعلم تجاوزها لأنها لا تتماشى مع مصلحة المتعلم، وهو ما حذر منه القابسي بقوله "وإنما يجري الألفاظ القبيحة من لسان التقي تمكن الغضب من نفسه وليس هذا مكان الغضب... لذا لا ينبغي لمعلم الأطفال أن يراعي منهم حتى يخلص أدبهم لمنافعهم، وليس لمعلمهم في ذلك شفاء من غضبه، ولا شيء يريح قلبه من غيظه، فإن ذلك إن أصابه فإنما ضرب أولاد المسلمين لراحة نفسه وهذا ليس من العدل"[15].

أما مقدار العقوبة فقد تنوع بحسب نوع الخطأ وأيضا حسب طاقة الصبي على التحمل وقد جعلا حد العقوبة لا يتجاوز الثلاث ضربات [16] أثناء الدرس أما إن كان الخطأ خارج الدرس ويخص الأدب والسلوك فقد يصل الأمر إلى عشر ضربات حسب طاقة الصبي على التحمل للألم من دون الحصول على ضرر بدني وهو ما أكده صاحب الرسالة بقوله "يزاد على الثلاث ما بينه وبين العشر إذا كان الصبي يطيق ذلك، وصفة الضرب هو ما يؤلم ولا يتعدى الألم إلى التأثير المشنع أو الوهن المضر [17].

وتتحدد آلة العقوبة وهي الدرة أو الفلقة التي تستعمل على الرجلين لأنهما أحمل على الألم إذ قال ابن سحنون في هذا الصدد "فالضرب في الرجلين آمن وأحمل للألم في سلامته"[18].

كما أكد على ضرورة التفقد الدائم والمراقبة المستمرة لسلوك الأطفال وأيضا لمستواهم التعليمي لذلك اعتمد على التفقد الدوري للعرض كل أسبوع بين عشية الاربعاء وصباح الخميس إذ لا يمكن للمتعلم الانتقال من سورة إلى أخرى ما لم يتمها وعليه فكما قال أن يتفقدهم بالتعليم والعرض ويجعل لعرض القرآن وقتا معلوما مثل عشية الاربعاء ويم الخميس" [19]، هذا مع التأكيد على بث روح التنافس بين المتعلمين ودفعهم إلى التفاضل والتمايز وهو ما أطلق عليه الفقيهان مصطلح التخاير فيجعلهم "يتخايرون لأن لذلك مما يصلحهم" [20].

هذه أهم المبادئ التي انتهجها الرجلان والتي كشفت عن ملامح الوعي بأهمية مسألة التعامل مع المتعلم وفهم خصائصه النفسية والذهنية، كما أخذت الممارسة التربوية التعليمية عند الفقيهين بعدا تعامليا صرفا يقوم على مبدأ الإيجار بين الطرفين هما المعلم من جهة والولي من جهة ثانية، لذلك تجد الوصي على الطفل يشترط على المؤدب تعليمه بعض المواد الأخرى الغير إجبارية كالحساب والخط واللغة وغيرها وهي مواد لا يجوز تدريسها منفردة، وإنما تلحق بالقرآن كمادة اجبارية لازمة لأنها تدخل ضمن ما يطلق عليها القابسي "معاني التقوية على القرآن" (21).

وبالرغم من إلزامهما على تحصيل المعرفة في المرحلة الأولى وهو إلزام من جهة التعميم لكل الفئات الاجتماعية وطبقاته وأيضا من جهة الالزام ببرنامج موحد ومحدد ألا أنهما قسما المحتوى المعرفي إلى مواد اجبارية لازمة ومواد تكميلية اختيارية وهي وإن كانت في نظرهم أساسية إلا أنهما لا يلزمانها على الأولياء ليصبح الهدف الأساسي التربوي متجها وفق القوانين التشريعية، والخصائص الفقهية المالكية، ولكن هذا لا يمنع ارتقاء التعليم إلى مرتبة المهنة الاجتماعية آنذاك وإلى الوعي بأهمية التعليم كعنصر فاعل في تكوين المجتمع وتشكيل الثقافة وما قام به الفقيهان أشبه بتصور للنظام التعليمي الحديث القائم على قواعد ومراحل وظوابط علمية.

بعد صدور هذين المؤلفين، شهدت افريقية فترة فراغ طويلة أثناء الحكم الفاطمي (296هـ-359هـ) عرف فيه صراع مذهبي بين السنة والشيعة، مقابل ذلك لم يهتم الفاطميون بمسألة العلم والتعليم كما وقع طرحه من قبل أهل السنة، ليتواصل هذا الوضع أكثر في العهد الزيري وخاصة في فترة ما بين 444هـ سنة قدوم الهلالين وبين 555هـ سنة قدوم الموحدين.

وقد تميزت تلك الفترة بفوضى سياسية وصراعات بين السلطات المختلفة وبين البدو والمدنية، الأمر الذي أدى إلى تراجع على جميع المستويات في مجال التبادل التجاري والإنتاج الزراعي وأيضا انكماش الحياة الفكرية والعلمية.

لكن مع بداية سنة 555هـ عرف الموحدون استقرارا بأفريقية وأسهموا في توحيد البلاد سياسيا وتأسيس عاصمة جديدة بافريقية خلفت القيروان وهي مدينة تونس التي عرفت اشعاعا على المستوى الاقتصادي والسياسي والعلمي وخاصة مع ظهور الحفصين بداية من سنة 626هـ.

هذه الانتعاشة في مختلف الجوانب بمدينة تونس تبعه ارتفاع عدد العلماء والفقهاء وانتشار المجالس العلمية الذي تدعم أكثر مع هجرة الأندلسيين إلى افريقية.

مختلف هذه العوامل أسهمت في ظهور المدارس وانتشارها فلأول مرة ينتقل التدريس من الجامع إلى فضاء خاص يعنى بالتعليم وهي المدرسة التي كانت آنذاك فضاءا لسكنى الطلبة لمدة خمس سنوات حيث يتلقون تعليمهم بها في نفس الوقت[22] ويقع تسديد نفقات وحاجيات هذه المدارس من مؤسسيها خاصة أصحاب السلطة أو بفضل الأحباس.

وأهم المدارس التي أسست بمدينة تونس في العهد الحفصي هي ثمانية مدارس وهي المدرسة الشماعية والمدرسة التوفيقية (مدرسة الهواء) والمدرسة المعرضية والمدرسة العنقية ومدرسة ابن تافراجين والمدرسة المنتصرية ومدرسة بزنقة سيدي محرز ومدرسة القائد النبيل[23].

وفي ظل هذه الظرفية السياسية التي اهتمت بالتعليم نشأ عبد الرحمان ابن خلدون [24] وهو أحد المؤرخين الذي تحدث عن العلوم وأصنافها وعن التعليم وطرق تدريسه في مؤلفه الشهير المقدمة.

**II- فكر ابن خلدون التربوي:** إن الاهتمام الذي أبداه ابن خلدون بدراسة الظواهر الاجتماعية، إضافة إلى ممارسته لمهنة التدريس التي تولاها عديد المرات، كل هذا جعله يعتني بالتعليم وبمسائل التربية في مقدمته حيث خصص فصلا في هذا المجال، تحدث فيه عن شؤون التربية ووسائل التعليم، وذلك بالقسم الرابع من مؤلفه ليتجاوز هذا الطرح مساحة الفصل المخصص له، ليدون الكثير من آرائه وملاحظاته حول هذا الميدان بين ثنايا الفصول المختلفة من مقدمته بصورة غير مباشرة.

وربط صاحب المقدمة دوام العمران بحالة البلاد واقتصادها وعليها يقيس حالة التعليم "لم يفت ابن خلدون الانتباه إلى وشك انقطاع سند تعليم العلم في افريقية والمغرب باختلال العمران وتناقض الدول بعد أن كان للعلوم أسواق نافقة وبحور زاخرة بالقيروان في عصرها الذهبي"[25].

لقد ميز ابن خلدون بدقة واقع التعليم في البيئة الاسلامية ولاحظ تهور طرق التدريس وتدني مستوى التعليم، لهذا ارتبط معه العمران "فكلما خرب هذا خربت معه معادن ذاك وارتحل العلم إلى غيره في الأمصار"[26] فالتقدم الحضاري مرتبط بالتطور العلمي والعمل على تحصيله أكثر من الاهتمام بالكسب والمعاش وكذلك بالتربية التي تمثل العامل الأساسي في تكوين الناشئة الصالحة في المجتمع والتي من دونها يكون التأثير السلبي على الانسانية "فيموج بحر المدينة بالسلفة من أهل الأخلاق النميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانها ممن أهمل عن التأديب وأهملته الدولة من عدادها"[27].

وقبل تقديم العلامة منهجه الخاص في التعليم كان قد انتقد جملة من الأساليب الخاطئة التي استند اليه غيره في تعليم الأطفال وهي:

**1- نقد التعليم القائم على الاختصارات:** ذهب العديد من المتأخرين العرب إلى اختصار العلوم فدونوا برنامجا مختصرا من كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن [28] وهي طريقة مخلة بالتعليم لأنها تخل بتبلغ المعلومة بين المعلم والمتعلم وتجعل الفهم صعبا، إضافة إلى أنها تسبق المداخل المنهجية بتقديم الغايات على المبتدئ في التعلم قبل أن ينضج لتلقيها وفهمها.

لقد كانت الغاية من الاختصار هو تسهيل الحفظ على المتعلم غير أن المختصرون صعبوا الأمر على المتلقي والنتيجة "صعب تقطعهم على تحصيل الملكات النافعة وتمكنها"[29].

وقد استدل ابن خلدون بشواهد واقعية للبرهنة على كلامه "كما فعله ابن الحاجب في الفقه، وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق، وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه خلل بالتحصيل[30].

كما حذر ابن خلدون من عدم الاقتصار على كتاب واحد إذ من فساد وسائل التعليم الزيادة على ما في الكتاب من مسائل من حيث الموضوع ومحاولة المعلم تقديم الاضافة للمتعلم دون فحوى الكتاب ولهذا ارتأى أنه من الضروري الاقتصار على كتاب واحد من حيث المضمون" فلا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيده من أوله إلى آخره ويحصل أغراضه ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره "[31].

**2- نقد التعليم القائم على كثرة التآليف:** اعتبر ابن خلدون كثرة التآليف عائقا عند تحصيل المعرفة لذلك قرر "أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعاليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك "[32].

يعني أن التآليف التي كان يستغرق فيها المتعلمون عمرهم من أجل حفظها هي تآليف فقهية ولغوية كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وبالتالي يضيع الهدف الأساسي من ذلك وهي ادراك العلم وليس وسائله ولا الطرق المؤدية إليه.

كما نبه العلامة من الانطلاق في التعليم بالمواضيع المقفلة، فمثل هذه الأمور تجعل المتعلم لا يستطيع فهم المسائل العامة وهذا ما لاحظه ابن خلدون في زمانه "أذ يحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه باستحضار ذهنه في حلّها ويحسبون ذلك مرانا على التعلم وصوابا فيه "[33].

ومن المشاهد المرتبطة بوضعية التدريس في عصره تطويل الجلسات وإعطاء الدروس مفرقة والتي تقود إلى النسيان وعدم تسلسل الأفكار، وهذا الأسلوب التعليمي لا تساعد الملكات على اكتساب المهارات والعلوم.

ومن المناهج العلمية التي رفضها العلامة أيضا هو تمكين الطفل من حفظ القرآن في أول مراحل دراسته التي ارتأى العلماء أن حفظ هذه المادة بالذات تجعل الطفل يتخلق بأخلاق حسنة ويكبر متدينا ولكن ابن خلدون رآها عملية شاقة لا تجدي نفعا عمليا أو معنويا لأن الطفل لا يفهم ما يقرأ ولا يستوعب ما يحفظ والتغيير إنما يحصل في الفهم وبالتالي يؤكد ابن خلدون إعجاز القرآن وصعوبة محاكاته في تعلم اللغة العربية لأن هذا المنهج العلمي يقوم على حشو الدماغ بالحفظ لا تكوين العقل وهذا الأسلوب التعليمي كان شائعا في المغرب إلى حدود القرن التاسع عشر حتى أن أحد المفكرين الأوروبين وهو "مرمونتال" كان قد وصف هذه التجربة " بدوي كطنين النحل "[34].

**3- نقد أسلوب الشدة على المتعلمين:** رفض ابن خلدون العقاب البدني المسلط على المتعلمين كما بين النتائج السلبية التي تخلفها الشدة أثناء الممارسة التعليمية، فهي تؤدي إلى ضعف النشاط وتقلصه وتقود بالتالي إلى الركون والكسل ومن ثمة تحمل المتعلمين على الكذب والخبث والتظاهر بغير ما في عقله فيصبح هذا النوع من السلوك إحدى عوائده وأخلاقه وإذا وصل الصبي إلى هذا المستوى "فسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتميز والمدافعة عن نفسه، وصار عيالا على غيره في ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الخلق الجميل فانقبضت على غاياتها ومدى انسانيتها وعاد في أسفل السافلين "[35].

هذه أهم النقاط السلبية التي دعا العلامة إلى التخلص منها في التعليم مقابل ذلك قدم منهجا تعليميا بديلا ارتكز على عدة نقاط أساسية مرحلية.

## III- المنهج التعليمي الخلدوني:

**1- التدرج في تلقين المعرفة:** حيث دعا المفكر التونسي إلى استعمال الفكر الطبيعي كإحدى الطرق الجديدة والسليمة في المنهج التعليمي فهو يفضل الاتصال بالأفكار والمعاني التي تحملها الألفاظ المباشرة من غير واسطة حتى إذا استوعب المتعلم الفكرة فإنه بالإمكان الاستعانة بالألفاظ أو الأدلة.

ويبدو أن ابن خلدون كان متشبثا برأيه لدرجه أنه أمر المتعلم بقوله: "وأخلص إلى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه وسرح نظرك فيه، وفرغ ذهنك للغوص على مرامك منه، واضعا لها حيث وضعها أكابر النظار قبلك "[36].

بهذه الطريقة يتم تلقين العلم شيئا فشيئا من خلال القاء مسائل ذات صيغة عامة ومجملة من كل باب فتكون هي الأصول مع الأخذ بعين الاعتبار المستوى العقلي للمتعلم ومدى استعداده لذلك العلم والغاية من هذا الإلقاء الأولي هو حصول المتعلم لملكة جزئية صغيرة تساعده على استيعاب العلم أو الفن المدروس وتحصيل مسائله.

كما أكد العلامة على ضرورة مساعدة الصبي من خلال التقريب بالأمثلة الحسية لتتضح الفكرة في ذهنه مع عدم الاطالة في ذلك الفن أو العلم الواحد لأنها تقود إلى النسيان وانقطاع مسائل الفن أو العلم وتفرقتها عن بعضها البعض.

**2- التكرار:** بما أن المرحلة الأولى تمكن المتعلم من تحصيل ملكة أولية وجزئية تؤهله إلى فهم وتحصيل المسائل الأخرى من ذلك العلم، فإن المرحلة الثانية تكون أوسع من الأولى، إذ ترجع بالمتعلم إلى تلك المسائل التي سبق دراستها فيرفع مستوى التعليم "فيستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن" [37] عندها ترتقي الملكة الأولية وتنتهي المرحلة الثانية لتأتي بعدها المرحلة الثالثة وذلك بالرجوع بالمتعلم إلى جميع المسائل التي تمت دراستها سابقا فيعمل المعلم على أن "لا يترك عويصا ولا مبهما ولا مغلقا إلى وضحه وفتح له مقفلة فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته" [38] وبالتالي يتضح أن المنهج التعليمي لابن خلدون ينبني على ثلاثة مراحل الأولى مرحلة الابتداء والثانية مرحلة التعمق ثم المرحلة الثالثة وهي مرحلة استكمال الخبرة.

**3- تعلم الكتابة والحساب:** ينصح العلامة بتعلم الكتابة قبل حفظ القرآن لأنها أكثر إفادة لزيادة العقل وتقوية مـــلكات الإدراك والانتقال، ومن فوائدها أن الكتابة "انتقال من الحروف الخطية إلى الكلمات اللفظية في الخيال ومن الكلمات اللفظية في الخيال إلى المعاني التي في النفس، فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات"[39].

إن قيام العملية الذهنية المتضمنة في الكتابة من الحروف المرسومة إلى منطوق الحروف المرسومة ومنها إلى الصورة الذهنية التي تقود إلى المعنى تزيد عقل المتعلم فطنة وذكاء عبر الانتقال الذهني السريع بين الدال والمدلول. كما أكد في منهجه التربوي ضرورة تعلم مادة الحساب بعد القراءة

والكتابة لنا الحساب يصقل العقل ويهيئه لتقبل سائر العلوم الأخرى إضافة إلى أنه يسهم في تنشأة الطفل على الصدق" لنا في الحساب من صحة المباني ومناقشة النفس فيصير ذلك خلق ويتعود الصدق ويلازمه مذهبا "[40].

**4- الرحلة إلى طلب العلم:** أكد ابن خلدون على ضرورة إدراج الرحلة ضمن برنامجه التعليمي فهي تكمل مرحلة العلم لدى المتعلم "فالرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم[41] على حد تعبيره، وتكون فائدة الرحلة أكبر كلما طالت مدة الرحلة وازداد عدد الشيوخ الذين تلقى منهم المتعلم العلوم وأيضا الأخلاق والفضائل "والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب ترة علما وتعليما والقاء وتارة محاكاة وتلقين بالمباشرة (...) إن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا"[42] بالنسبة إليه.

وعلى هذا الأساس دعا العلامة إلى ضرورة المناقشة والمحاورة التي تسهم في فتق "اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية"[43]؛ فالمحاورة في الأخذ والعطاء ومراجعة المخاطب للمتكلم هي من الطرق ذات الفعالية في التدريس، وهي طريقة تتميز بتفضيل المشاهدة على الخبر.

إن هذه الفكرة الجديدة تظهر لنا مدى قيمة المنهج العلمي التربوي عنده؛ فهو ضد تلقين المعارف لأنه يعطي دورا للمتعلم ليس فقط في استقبال ما يقدم له ولكن في تمحيصه إذ لا يؤخذ بشئ منه حتى يتحقق في صحته وسلامته، ولهذا لا بد من المناظرة والمفاوضة والمحاورة؛ فلم يعد موقف المتعلم سلبيا، بل أصبح المتعلم يشارك المعلم في استخراج الحقائق من عرض الدرس، إضافة إلى تدريب لسانه على الكلام المنطقي والإجابة الجيدة والمعقولة ولهذا نجد موقف العلامة السلبي بالنسبة للمدارس التي تقضي على الرحلة لأنها تمثل اجترارا للعلم دون تنوع أو اجتهاد.

إن المتتبع لفكر ابن خلدون ولآراءه في التربية والتعليم يرى أنه أجاد فيها بأشياء تستحق الدراســـة والتدقيق، فهي أفكار تتشابه تفاصيلها مع نتائج الدراسات الحديثة في التعليم وهي على درجة كبيرة من الابداع والطرافة العلمية والتربوية، فبالإضافة إلى سبقه وتجديده في مجالات التفكير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وفي ميدان علم التاريخ "يعد أيضا من مشاهير المربين وفلاسفتهم لأنه استطاع في القرن الرابع عشر ميلادي أن يبدع في وضع مبادئ وطرق لتربية الأطفال وتعليمهم في جميع مراحل الدراسة يتفق أكثرها مع أصول التربية الحديثة في هذا العصر"[44].

وتتجلى هذه الطرافة في أنه لا يعتبر العلم والتعليم نشاطا فكريا تجريديا بعيدا عن الواقع الملموس، بل يعتبر العلم ظاهرة تسهم في تكوين المجتمعات وتطويرها حيث أدرك المجتمع ووعي بقيمة التعليم وضرورته للإنسان من أجل الإحاطة بالمعارف الأساسية في حياته وبمختلف العلوم حتى يكتسب الخبرات ويرتقي ليسهم في تطوير مجتمعه.

وفيما يلي ملخص أبرز نقاط التشابه والاختلاف بين المربين الثلاث أبن سحنون وأبي الحسن القابسي وابن خلدون:

| أعلام التربية | ابن سحنون والقابسي | ابن خلدون |
|---|---|---|
| **نقاط التشابه** | - اعتماد أسلوب الحفظ في القرآن كمنهج أساسي لتعليم الصبيان<br>- تعليم الحساب والشعر والعربية ليس واجبا (إجباريا)<br>- لا يجوز تعليم القرآن بالألحان والغناء وإنما على طريقة نافع<br>عقاب الصبي: إن أخطأ يقوم على ثلاث ضربات ولا يزيد عن عشر مع عدم الضرب الرأس أو الوجه<br>- عدم تدريس المسلمين في المدارس الغير إسلامية<br>- نهي غير المسلمين التعلم في الكتاتيب. | - الدعوة إلى العدل بين الصبيان<br>- تأديب الصبي في حدود معين من الضربات<br>- هدف الضرب التأديب وليس غضب المؤدب<br>- امكانية تعليم البنات مع عدم الاختلاط<br>- الإجازة في الأعياد: عيد الفطر والأضحى والعطلة الأسبوعية عشية الخميس ويوم الجمعة<br>- يصح عقاب المعلم إذا قصر عن القيام بواجبه<br>- أخذ المعلم لأجره عند تدريس الصبي<br>- لا يجوز أن يكلف المعلم الصبي فوق أجره |
| **نقاط الاختلاف** | - توسع القابسي عند التحليل مع التعمق في بعض الجزئيات التي أغفل عنها ابن سحنون<br>- تأكيد القابسي لضرورة التعليم وإجباريته عند الصبيان وهي القضية التي لم يتطرق اليها ابن سحنون. | - تعلم اللغة كمرحلة أساسية أولى لتعلم سائر الفنون أو العلوم الأخرى<br>- اعتماد مبدأ التكرار في عملية التعلم وهي على 3 مراحل:<br>1- المرحلة الأولى إجمالا<br>2- المرحلة الثانية تفصيلا<br>3- المرحلة الثالثة: تعميقا<br>- عدم إطالة الفواصل الزمنية بين الدروس<br>- أن الاختصارات في العلوم مخلة بالتعلم<br>- التعلم يكون بالمحاورة لا بالحفظ. |

## الهوامش:

1- هو أبو عبد الله بن ابن سعيد سحنون ولد بالقيروان سنة 202 هـ، نشأ على يد أبيه سحنون وتتلمذ عنده بافريقية، كما سافر الى مصر والحجاز ليتلقى العلم على يد علمائها، ثم واصل مهنة التدريس مثل والده، ألف العديد من الكتب منها كتاب الجامع، المسند، تحريم المسكر، مسائل الجهاد، تفسير الموطأ، الرد على أهل البدع، كتاب التاريخ، طبقات العلماء،...الخ.

2- هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القابسي الفقيه القيرواني ولد سنة 324هـ/935 م بالقيروان كان عمدة المدرسة المالكية بالقيروان، وفقيها مولعا بأصل الشريعة المبنية على العقل وهو راسخ القدم في التربية وفي تأليف الكتب العلمية من أثاره الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين، وأحكام المعلمين والمتعلمين وهو الكتاب الذي اعتمدناه في دراستنا، اضافة الى تأليفه لمجموعة من الكتب الأخرى منها كتاب رتب العلم وأحوال أصله، كتاب ملخص الموطأ، كتاب أحكام الديانة... الخ

3- هو عبد الرحمان (ولي الدين) ابن محمد بن ابن أبي بكر بن محمد بن حسن بن محمد بن جابر بن محمد بن ابراهيم ابن عبد الرحمان ابن خلدون، ولد بمدينة تونس في 1 رمضان 732 هـ /27 ماي 1332، تلقى تعليمه بمسقط رأسه ثم انتقل بين مصر والمغرب مارس العديد بين العديد من المهن، فكان خطيبا واماما وقاضيا ومربيا وكان له شأن هام في بلاط الأمراء والسلاطين، ألف العديد من الكتب أهمها المقدمة التي احتلت الصدارة من حيث اهتمام الباحثين بها.

4- أبو الحسن القابسي، الرسالة المفصلة في أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين، تحقيق أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، ط1، تونس، جانفي 1986، ص 76.--- 5- نفس المرجع ص 82-83--- 6- نفس المرجع ص89-90

7- محمد بن سحنون، آداب المعلمين، تحقيق محمود عبد المولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981 ص74.

8- القابسي، الرسالة المفصلة ص 161-162.---- 9- أنظر نظام العطل برسالة القابسي ص 135-136-137.

10- ابن سحنون، آداب المعلمين ص 82.--- 11- نفس المرجع والصفحة.

12- نفس المرجع ولصفحة. --- 13- نفس المرجع والصفحة.

14- نفس المرجع، ص 85-86.--- 15- القابسي، الرسالة المفصلة، ص 127 -128.

16- نفس المرجع، ص 129.---- 17- نفس المرجع، ص 128-129.

18- نفس المرجع، ص 13.---- 19- نفس المرجع والصفحة.

20- القابسي، الرسالة المفصلة، ص 131.---- 21- نفس المرجع والصفحة.

22- نفس المرجع، ص 111.---- 23- ابن خلدون المقدمة، دار الجيل بيروت، 1970 ص 379.

24- أنظر مقالة الأستاذ ابراهيم جدلة جغرافية المعرفة في العهد الحفصي عن دراسة باجي بن مامي، مدارس تونس في العهد الحفصي أبن العهد الحسيني، س ت كلية العلوم الانسانية، تونس 1981، ص 33.

25- أحمد خالد، مع ابن خلدون في منهجه التربوي، الفكر، ح 19، ع 4 ديسمبر 1973، ص29.

26- المقدمة، ج3، ص 546.--- 27- نفس المرجع، ص 466-467.---- 28- نفس المرجع،ج 4، ص 1232.

29- نفس المرجع والصفحة.---- 30- نفس المرجع والصفحة.---- 31- نفس المرجع، ج 4، ص 1234.

32- نفس المرجع والصفحة.--- 33- نفس المرجع والصفحة.

34- Marmontel , Une éducation au XVIII Sciécle –Extraits des Mémoires les belles lectures, paris 1953 p17.

35- المقدمة، ج 4، ص 1249.---- 36- نفس المرجع، ج 4، ص1247.---- 37- نفس المرجع، ص 1233.

38- نفس المرجع ونفس الصفحة.---- 39- المقدمة ج 3 ص 698.---- 40- نفس المرجع، ج 3، ص 700.

41- المقدمة ج 4، ص 1245.---- 42- نفس المرجع والصفحة.---- 43- نفس المرجع، ج 3، ص 987.

44- محمود عبد المولى، ابن خلدون وعلوم المجتمع، الدار العربية للكتاب، ط 2، ليبيا، تونس 1980 ص 91.

ABSTRACT: Muslim scholars cared for education and the educational process from beginning morever Kairouan scientists and Tunisia wrote so many of relevant literature, for example: "The Book of Etiquette teachers" Abu Abdullah Muhammad ibn Abi Saeed bin Sahnoun (202- 256AH) and Book: "the detail message to conditions of educated conditions and teachers ,judges, learners," Abu Hassan Gabes (324- 403AH). The six of the «mokadima» of Ibn Khaldun (732- 808AH) about "Science, brands and the education and methods and other facets" (p.769-1169) Concerned as the most important books about science and teaching methods until in the period of Ibn Khaldun.

The writings of Ibn Sahnoun and Gabésian reflect the first experiments was the primary direction not pass jurisprudence about learning, education has shaped thought Ibn khaldoun important quality of the development science, especially the appearance of schools and the development of the educational process.

I'm going in this presentation reviewed the most important educational ideas of the three flags compared with each other and then I'll try to trace the development of the educational process and the tools and institutions of the second century of migration to the ninth century. Then I will conclude assessments Ibn Khaldun education in his time and in his previous periods.